الثقافة التاريخية

ومن الثقافة اللازمة لمَن نصَّب نفسه للدعوة : الثقافة التاريخية .

فالتاريخ هو ذاكرة البشرية ، وسجل أحداثها ، وديوان عِبَرها ، والشاهد العدل لها أو عليها .

ويهمُّنا في ذلك تاريخ الإسلام والأمة الإسلامية خاصة ، وتاريخ الإنسانية بصفة عامة ، أعني المواقف الحاسمة منه ، والملامح الرئيسية فيه ، لأنه لا يُتصوَّر أن يدرس ، الإنسان تاريخ البشر كافَّة ، ولو كان متخصِّصا ، فكيف بغير المتخصِّص! وإنما يحتاج الداعية إلى التاريخ لأمور :

١- أنه يوسِّع آفاقه ، ويُطلعه على أحوال الأمم ، وتاريخ الرجال ، وتقلُّبات الأيام بها وبهم ، فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جَور : كيف ترقى الأمم وتهبط؟ وكيف تقوم الدول وتسقط؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم؟ وكيف تحيا الحضارات وتموت؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو؟ يقول القرآن : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦) .

٢- أن التاريخ أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدين من قِيَم ومفاهيم . فهو مرآة مصقولة تتجلَّى فيها عاقبة الإيمان والتقوى ، ونهاية الكفر والفجور ، وجزاء الشاكرين لنعمة الله ، وعقوبة الكافرين بها ، وكيف يجني مَن يغرس الخير ، ويحصد مَن يزرع الشوك . ولهذا عني القرآن الكريم بذكر قصص السابقين ، وتواريخ الغابرين ؛ لما فيها من عِبَر بليغة ، وعظات حيَّة . كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(ق:٣٦،٣٧)

وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف:١١١) .

وكثيرا ما يعقِّب على نهاية الأمم تعقيبات تبرز ما وراءها من دروس ، مثل قوله بعد قصة ثمود : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (النمل:٥٢ ، ٥٣) .

وقوله بعد قصة سبأ : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (سبأ:١٧)

وقوله بعد قصة موسى وفرعون : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٧) .

والداعية يحتاج إلى أن يستشهد للمعاني والقِيَم التي يدعو إليها بأحداث التاريخ ، ومواقف الأبطال ، وغير الأبطال . فهذا أعون على تثبيتها في العقول والقلوب ، فإن الكلمات قد تُنسى ، ولكن الوقائع قلَّما تنسى .

٣- أن التاريخ كثيرا ما يعين على فَهم الواقع الماثل ، ولا سيما إذا تماثلت الظروف ، وتشابهت الدوافع ، وهذا ما جعل العرب قديما يقولون : ما أشبه الليلة بالبارحة ! وجعل الغربيين يقولون : التاريخ يعيد نفسه . بل القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى حين أشار إلى وحدة التصرُّفات أو تشابه الأقوال عند تشابه البواعث وذلك في مثل قوله عن المشركين وطلبهم الآيات الكونية من رسول الله ، كقولهم : ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ﴾ آيَةٌ (البقرة:١١٨) ، ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (البقرة:١١٨) .

وقال في سورة أخرى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الذاريات:٥٢ ، ٥٣) ، أي أنهم اتَّحدوا في الاستكبار والطغيان ، فاتَّحد ما صدر عنهم من زور وبهتان . وأكثر من ذلك أن بعض القضايا الحاضرة لها جذورها التاريخية البعيدة الأغوار ، فمَن لم

obeikandi.com

يعرف أغوار ماضيها لم يدرك أسرار حاضرها . فالصدام بين الإسلام والمسيحية في هذا العصر لا يُعرف حقَّ المعرفة ما لم يُعرف صراع الحروب الصليبية ، وما دفع إليها من بواعث ، وما صحبها من دمار ، وما خلَّفته من آثار ، وما أسفرت عنه من نتائج . . . بل لا يُعرف إلا من بداية الصراع منذ موقعة اليرموك وفتوح الشام ومصر وإفريقية في عهد الراشدين ، بل منذ معركة مؤتة وغزوة تبوك في عهد النبي ﷺ .

٤- أن بعض جوانب التاريخ لها صلة وثيقة بعمل الداعية واهتماماته ، وأعني الجانب العقلي أو الفكري في التاريخ ، مثل : تاريخ الأديان ، نشأتها وتطوُّرها ، وأهم الشخصيات والوقائع المؤثِّرة في سيرها ، وما آلت إليه في النهاية ، ومثل ذلك : تاريخ النِّحَل والفِرَق ، تاريخ الفلسفات والمدارس الفكرية ، تاريخ الحضارات الكبرى ، ولا سيما الجانب الثقافي منها .

● تنبيهات للدعاة في المجال التاريخي :

وأودُّ أن ينتبه الداعية الذي يطالع التاريخ ، ويقتبس منه إلى الأمور الآتية :

(أ) ألا يجعل أكبرِ همِّه وعي جزئيات التاريخ وتفصيلاته ، فهذه لا يمكن أن تُحصر ، ولو أمكن أن تُحصر لكانت فائدة الداعية منها جدُّ قليلة . إنما المهم رؤوس العبر ، ومواقع العظمة في التاريخ .

وبعبارة أخرى : المهم هو المغزى الأخلاقي للتاريخ واتجاهات الأحداث فيه ، وحصادها الناطق المعبِّر بلسان الحال .

(ب) أن يكون ذا وعي يقظ للوقائع التاريخية التي تخدم موضوعه ، وتعمِّق فكرته ، وتقدِّم لها الشواهد الحيَّة . وليس من اللازم أن يجد هذه الوقائع في كتب التاريخ المتخصِّصة . بل كثيرا ما يلتقطها بحسِّه الواعي من مصادر قد لا يلتفت إليها كثيراً رجال التاريخ . فقد يلتقطها من القرآن فيما قصَّه علينا بالحقِّ : ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ** ﴾ ، وقد يلتقطها من كتب الحديث والآثار ، وخصوصا فيما يتعلَّق بعصر الراشدين والقرون الأولى ، وقد يلتقطها من بعض كتب الأحكام مثل الخراج والأموال ، وقد يلتقطها من كتب الأدب ، أو كتب الحسبة ، أو كتب الرحلات ، أو كتب الفتاوى وغيرها .

(جـ) أن يعنى بسير الرجال، ومواقف الأبطال، وبخاصة العلماء والدعاة، والصالحون. وفي تاريخنا ثروة من السير تتمثَّل فيها الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، وتُبرز الشخصية المسلمة مجسَّدة في مواقف وأعمال، كما نلمس ذلك في كتب الطبقات والتراجم، سواء ما كان منها عاما كـ(وَفَيَّات الأعيان)، و(الوافي بالوَفِيَّات)، وما كان منها خاصا بفئة معيَّنة كرجال الحديث مثلا، كما تجد ذلك في (طبقات ابن سعد)، و(تهذيب التهذيب) أو الزهاد والصالحين مثل: (حلية الأولياء)، و(صفة الصفوة)، أو الفقهاء مثلا، كالمجتهدين من الأئمة أو أتباع مذهب معين مثل: طبقات الحنفية أو الشافعية أو غيرهم من علماء المذاهب المتبوعة. وهكذا طبقات الأطباء والحكماء واللغويين والنحاة، إلخ.

فالذي نركِّز عليه هنا: أن التاريخ ليس للملوك ولا لرجال السياسة وحدهم، فكم من أفراد وفئات أخرى تُسهم في صنع التاريخ، وتترك (بصماتها) في حياة الناس أكثر من السلاطين والأمراء والزعماء السياسيين.

وقد نجد حياة هؤلاء الطافين على سطح التاريخ فقيرة أو مقفرة من القدوة، على حين نجد حياة الآخرين خصبة وثرية من المُثُل العليا، والمعاني الطيبة، وهذا ما لم يغفله تاريخنا الإسلامي والحمد لله.

(د) أن يهتمَّ بربط الحوادث والوقائع ـ خصوصا في تاريخنا الإسلامي ـ بأسبابها وعللها المعنوية والأخلاقية. فالذي يطالع تاريخنا بدقَّة، ويتأمل سيره بعمق، يجد أن المدَّ والجزر، والامتداد والانكماش، والنصر والهزيمة، والازدهار والذبول، والغنى والفقر، كلُّها ترتبط بمقدار صلة الأمة بالإسلام أو انفصالها عنه، وقربها من تعاليمه أو بعدها عنها، وحسبنا أن نلقي نظرة عجلى إلى عصر الراشدين، أو عصر عمر بن عبد العزيز، أو عصر الرشيد، أو نور الدين، أو صلاح الدين، لترى تمسُّكا بالدين، أو رجعة إليه، ونرى ثمارها عزًّا وازدهارا. والعكس بالعكس في عصور أو فترات أخرى.

(هـ) أن يكون محور التاريخ الإسلامي هو الإسلام نفسه، دعوة ورسالة، وأثره في تربية الأجيال، وتكوين الأمة المسلمة، وإقامة الدولة الإسلامية، وبناء الحضارة

الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، وتأثيره في العالم كلّه ، وقدرته على الانتشار عند القوة ، والمقاومة عند الضعف ، واستطاعته التأثير في غالبيه ليعتنقوه عن رضا واختيار ـ كما فعل مع السلاجقة والتتار ـ واختزانه كل العناصر والطاقات اللازمة لإمداد أمته بروح الجهاد لإثبات الذات أو لاستعادتها .

وهنا يجب أن نركّز على عدّة حقائق تاريخية قد يغفلها مُغْفِلون عمدًا أو سهوًا :

١- يجب إبراز الجاهلية العالمية والعربية ـ التي كان يتردّى فيها العالم عامة والعرب خاصة ـ على حقيقتها بلا إفراط ولا تفريط .

ذلك أن النزعات التبشيرية والاستشراقية تريد أن تُلبس هذه الجاهلية لبوسًا حسنًا ، مضخِّمة ما كان لها من حسنات ، متغاضية عما عجَّت به من مثالب . وقد طرب لذلك القوميون ، وخصوصًا من العرب ، فحرصوا على عرض الجاهلية العربية مبرَّأة من كلِّ عيب ، وإذا عرضوا الشيء من عيوبها مسُّوه برفق : كما يبدو ذلك في دراسة التاريخ والأدب وما سمِّي (المجتمع العربي) وغير ذلك ، متجاهلين ما كانوا عليه من فساد العقائد والأخلاق والأنظمة والتقاليد . وصدق الله حين قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:٢) .

ورضي الله عن عمر الذي قال : إنما تنقض عُرا الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام مَن لا يعرف الجاهلية[1] . وذلك لأنه لا يعرف مقدار ما قدَّمه الإسلام من هداية وإصلاح . وهذا بشرط ألا يمسَّ ذلك ما تميَّزت به أمة العرب ، ولغة العرب ، وأرض العرب من خصائص رشَّحتها لاحتضان الرسالة العامة الخالدة : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤) .

٢- ينبغي الاهتمام بحركات الإصلاح والتجديد في تاريخ الإسلام ، وبرجال التجديد الذين يبعثهم الله بين حين وآخر في هذه الأمة ليجددوا لها دينها ، أيًّا كان لون

---

(١) مدارج السالكين (٣٤٣/١) .

هؤلاء الرجال واتجاههم ، فقد يكون منهم الخلفاء كعمر بن عبد العزيز ، أو السلاطين والأمراء كنور الدين وصلاح الدين ، أو الفقهاء والدعاة كالشافعي والغزالي وابن تيمية وابن عبد الوهاب ، وقد يكون المجدِّد فردًا ، وقد يكون جماعة أو مدرسة إصلاحية يبرز بها اتجاه في الإصلاح له سماته وخصائصه .

٣- كما يجب الالتفات إلى دور الإسلام ورجاله وأثره في حركات المقاومة والتحرير التي ظهرت في العالم الإسلامي ـ على تباعد أطرافه ـ منذ وطئته جيوش الاستعمار . فرغم المكر الصليبي ، ومحاولات التخدير والتضليل ، وذرٍّ الرماد في عيون المسلمين ، لم يسلم الاستعمار من المقاومة الباسلة في كلِّ بلد دخله وأُريقت الدماء ، وسقط الشهداء تلو الشهداء ، ولم تزل المقاومة على مرِّ الزمان حتى كان التحرير . وكان الإسلام وعلماؤه ودعاته ، وراء هذا الجهاد للاستعمار ، بريطانيًا كان أو فرنسيًا أو إيطاليًا أو أسبانيًا أو غير ذلك . وقد شهد بذلك مؤرِّخون غربيون مثل برنارد لويس[1] وغيره .

● تحذيرات للدعاة في المجال التاريخي :

وأضيف إلى التنبيهات السابقة للدعاة في مجال الثقافة التاريخية ، تحذيرات يجب على الداعية ألاَّ يغفل عنها :

أولا : ليس كلُّ ما تحويه كتب التاريخ صحيحًا مائة في المائة ، فكم حوت مراجع التاريخ من مبالغات وتشويهات وتحريفات تكذِّبها الحقائق الثابتة بالاستقراء أو بالموازنة بالأدلَّة الناصعة في مصادر أخرى . وكم لعبت الأهواء والعصبيات السياسية والدينية والمذهبية دورها في كتابة التاريخ ، وفي رواية وقائعه وتلوين أحداثه ، وتصوير أبطاله إيجابًا أو سلبًا ، وخصوصًا إذا علمنا أن ـ التاريخ يكتبه ـ عادة المنتصرون الغالبون ـ والغلبة لها بريق وأضواء ، كثيرًا ما تعشي أعين المؤرخين عن سوءات الغالبين ، في حين تضخِّم أخطاء المغلوبين ، وتطمس فضائلهم ، عن قصد أو غفلة .

---

(١) في كتابه الغرب والشرق الأوسط ، ترجمة دكتور نبيل صبحي .

وإذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامي الذي يتعلّق بأمثل عصور وأفضلها ، وهو تاريخ العصور الأولى التي انتشر فيها الإسلام في الآفاق ، وانتشرت معه لغته وفقهه ، واتّسع فيها تعلُّم كتابه وسنة نبيه ، وهو تاريخ عصر الصحابة ومَن تبعهم بإحسان ، وهم الذين أثنى عليهم الله ورسوله ، وهم الذين حفظوا القرآن والحديث وبلّغوهما إلى الأجيال اللاحقة من بعدهم ، إذا نظرنا إلى هذا التاريخ وجدناه قد ظُلِم وشوِّه في كتب التاريخ أي ظلم وتشويه . ثم يجيء المعاصرون ليأخذوا من تلك الكتب بعُجَرها وبُجَرها ، ويقولون : نحن لم نحِد عن الطريقة العلمية ، فمصدرنا الواقدي أو الطبري أو ابن الأثير ، إلخ . . . جزء كذا ، صفحة كذا ، طبعة كذا .

هكذا يصنع المستشرقون ، وهكذا يفعل أساتذة التاريخ في الجامعات ، وهكذا يسير الذين يكتبون عن التاريخ في المجلات ، وفي غير المجلات .

ولم يكلِّف هؤلاء أنفسهم أن يدرسوا كيف كُتب تاريخ تلك العصور .

لنأخذ أهم هذه المصادر القديمة وأشهرها وهو : (تاريخ الطبري) .

لقد كانت الفكرة المهيمنة على الطبري عند كتابة تاريخه هي التجميع والتسجيل ، دون الانتقاء أو التمحيص للأسانيد أو الوقائع المرويّة . فمَن كان عنده خبر ذو بال نقله عنه ودوَّنه منسوبًا إليه ، وإن كان راوي الخبر من الضعفاء أو المتَّهمين أو المتروكين ، وإنما دفعه إلى ذلك حبُّ الاستقصاء ، والخوف من أن يفوته بإهماله شيء من العلم ، ولو من بعض النواحي . ويمثِّل العلامة السيد محب الدين الخطيب الطبريَّ ومَن في طبقته من العلماء ، في إيرادهم الأخبار الضعيفة برجال النيابة في عصرنا ، إذا أرادوا أن يبحثوا في قضية فإنهم يجمعون كلَّ ما تصل إليه أيديهم من الأدلّة والشواهد المتَّصلة بها ، مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه ، اعتمادًا منهم على أن كلَّ شيء سيقدَّر بقدره[1] . هذا عذر الطبري وأمثاله في روايته عن المجروحين .
وله عذران آخران :

---

(١) مجلة الأزهر ، مجلد (٢٤) عدد صفر سنة ١٣٧٢هـ ، مقالة (المراجع الأولى في تاريخنا) لمحب الدين الخطيب .

أولهما : أنه يروي الحوادث بسندها إلى مَن رواها ، ويرى أنه إذا ذكر السند فقد برئ من العهدة ، ووضعها على عاتق رواته . وقد قيل : مَن أسند فقد حمَّل . أي حمَّلك البحث في سنده ، وكان هذا مقبولا في زمنه حيث يستطيع العلماء أن يعرفوا رجال السند ، ويحكموا لهم أو عليهم .

ومن هنا قال الطبري في مقدمة تاريخه :

(فما كان في كتابي هذا مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤتَ ذلك من قبلنا ، وإنما أُتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدَّينا ذلك على نحو ما أُدِّي إلينا)[1] .

وبهذا حمَّل رواته التبعة ، وحمَّل بالتالي دارس كتابه أن يفتِّش عنهم في كتب الرجال ، ومصادر الجرح والتعديل ، وسيجد حينئذ عددًا منهم ساقطًا بالمرَّة ، وعددًا آخر مختلفًا في توثيقه وتضعيفه ، وعددًا آخر من الثقات المقبولين .

فمن رجال الطبري : محمد بن إسحاق صاحب السيرة ، قال فيه الإمام مالك وغيره ما قالوا ، ومَن وثَّقه لا يقبل كلَّ ما يرويه ، وكثيرًا ما كان الرواة عنه أضعف منه وأوهن .

والواقدى كذَّبه جماعة من أئمة الحديث ، ومَن قبله لم يقبله بإطلاق .

وهشام بن محمد الكلبى وأبوه ، وهما متهمان بالكذب .

وسيف بن عمر التميمي كان يضع الحديث ، ويروي الموضوعات عن الأثبات ، اتهم بالزندقة ، ضعَّفه غير واحد .

وأبو مِخنَف لوط بن يحيى الأزدى ، قال فيه الحافظ الذهبي : إخباري تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره . وقال ابن معين : ليس بثقة ، وقال مرَّة : ليس بشيء . وقال ابن عدي : شيعي محترق ، صاحب أخبارهم!

---

(١) تاريخ الطبري (١٣/١) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

وغير هؤلاء كثيرون ، من المجروحين المتروكين عند أئمة الجرح والتعديل من علماء الحديث ، وإن كان رجال التاريخ والأخبار يروون عنهم ، ويستندون إليهم .

ومن أجل هذا لا يقيم المحقِّقون وزنًا لروايات (الإخباريين) ولا يعتمدون عليها ، ويعيبون مَن ينقل عنها في كتب العلم المعتبرة .

ولهذا نجد الإمام النووي يقول في كتاب (الاستيعاب) لفقيه المغرب ومحدِّثه الإمام ابن عبد البر النَّمَري : (إنه من أحسن الكتب المؤلَّفة في الصحابة وأكثرها فوائد ، لولا ما شانه بذكر ما شجر بين الصحابة وحكايته عن الإخباريين) .

قال السيوطي معقِّبًا : (والغالب عليهم الإكثار والتخليط فيما يروونه)[1] .

والعذر الثاني : للطبري في عدم تمحيص ما رواه في تاريخه : أن الموضوع لا يترتَّب عليه حكم شرعي من تحليل أو تحريم أو إيجاب أو غير ذلك ، مما يتعلَّق به علم الفقه . كما أنه لا يتَّصل ببيان كلام الله أو كلام رسوله ، كما في علم التفسير ، أو علم الحديث . ولا غرو أن وجدنا الطبري ـ الذي كان إمامًا جليل القدر في التفسير والحديث والفقه حتى كان له مذهب متبوع مدَّة من الزمن ـ يدقِّق ويحقِّق فيما يتَّصل بهذه العلوم المذكورة ، ولكنه يترخَّص ويستاهل في أمر التاريخ ، قائلاً في تسويغ (إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج . . .)[2] .

وغفر الله للإمام الطبري ، فإن هذا التساهل قد شوَّه تاريخ فجر الإسلام ، وأساء إلى حملة رسالته الأولين ، وفتح باب الاعتذار نفسه لمَن بعده ، فأخذوا عنه كما أخذ عمَّن قبله ، وأدَّوا إلى مَن بعدهم ، كما أدَّى هو إليهم ، وكما أدَّى إليه مَن قبله . ومن ثم نرى أن ابن الأثير وأبا الفداء ابن كثير وغيرهم ، يعتمدون على الطبري ، ثم جاء المعاصرون والمستشرقون فاعتمدوا على هؤلاء ، واعتبروا ذلك علمًا وتحقيقًا .

ولا غرو أن أقام فقيه كبير ، وإمام جليل ، هو القاضي أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ) بالدفاع عن الصحابة ، وتحقيق مواقفهم بعد وفاة الرسول ، تحقيقًا

(١) انظر التدريب على التقريب (٢/٢٠٧) .
(٢) تاريخ الطبري (١/١٢) .

علميًّا موضوعيًا ، وذلك في كتابه القيم : (العواصم من القواصم) الذي أخرج الجزء الخاص منه بالصحابة وحققه وعلق عليه بإفاضة : العلامة السيد محب الدين الخطيب ، رحمهما الله وجزاهما عن الإسلام خيراً .

ثانيًا : كما يتعرَّض التاريخ للتحريف والتشويه في تدوينه ، يتعرَّض لهما أيضًا في تفسيره .

وفي عصرنا هذا نجد الأهواء والعصبيات والتيارات الفكرية تعمل عملها في تفسير التاريخ وتوجيه وقائعه ، وقد انعكس هذا على التاريخ الإسلامي أيضًا .

فالمستشرقون ـ في الغالب ـ حين يبحثون في التاريخ ، يخدمون به فكرة بيَّتوها عن محمد ﷺ ودينه ، فمحمد ليس برسول الله ، والإسلام ليس بدين الله ، وأصحابه ليسوا إلا ثلَّة من المغامرين المتنافسين على الدنيا!

وإذا كان هذا رأيهم في الصحابة فكيف من بعدهم؟

لا دين عندهم إلا اليهودية والمسيحية ، أما الإسلام فهو في زعمهم نسخة محرَّفة منهما ، ولا عبقرية عندهم إلا للغربيين ، ولا حضارة كحضارة اليونان والرومان . والمسلمون لا يزيدون على أن يكونوا نقلة لهما . . . إلخ .

وفي سبيل هذا يغفلون أحداثًا قيِّمة ، ويضخِّمون أحداثًا تافهة ، ويردُّون أخبار صحيحة ، ويعتمدون أخبارًا ضعيفة أو مكذوبة ، يتصيَّدونها من أي كتاب ولو كان (الأغاني) للأصفهاني .

ويوجهون هذا كله توجيهًا مسمومًا يؤيد اعتقادهم السابق عن الإسلام وكتابه ورسوله وأمته .

والماركسيون يفسِّرون التاريخ ـ وفقًا لفلسفتهم المعروفة ـ تفسيرًا ماديًّا طَبَقيًّا ، ويحاولون أن يطبِّقوا ذلك على نشأة الإسلام وظهوره وانتشاره ، ويعتسفون في ذلك كلَّ الاعتساف ، ويحمِّلون الأحداث ما لا تحتمل بحال ، ويقسِّمون الصحابة إلى يمين ويسار ، ويديرون صراعًا موهومًا بينهما . . . وهكذا . وكثير من كتاب

المسلمين أنفسهم ، يخلعون على حوادث التاريخ ، ومواقف رجاله ، ما عرفوه وخبروه من ألاعيب السياسة ، ومواقف رجالها في هذا ، ويتخيَّلون العلاقة بين عمر وخالد ، أو بين عثمان وعلي ، أو بين علي وطلحة والزبير ، من أمثال العلاقة بين الطامحين والطامعين من رجالات الأحزاب ، وتجار السياسة في عصرنا ، ويفسِّرون المواقف والأحداث تبعًا لهذا التصور الظالم ، المتجني على هذا الجيل المثالي الذي لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله .

والقوميون من العرب يوجِّهون التاريخ الإسلامي كلَّه وجهة قومية ، فالإسلام في نظرهم انتفاضة عربية أو وثبة من وثبات العبقرية العربية! ورسول الإسلام ذاته بطل قومي جادت به أمة العرب على الإنسانية! ولا نعجب بعد ذلك إذا غدا (أبطال الإسلام) وعلماؤه ورجالاته الكبار على مدار تاريخه (أبطالاً عربًا) ، ولا أن تسمَّى الحضارة الإسلامية (حضارة عربية) . مع أنها بلا ريب إسلامية بحكم أهدافها وقِيَمها المستمدَّة من الإسلام . . . إسلامية بحكم بواعثها ودوافعها المرتبطة بخدمة الإسلام ... إسلامية بحكم العناصر التي أسهمت في بنائها وتشييد أركانها ، وهي عناصر تشمل كلَّ الأجناس والشعوب الإسلامية . إسلامية بحكم الرقعة التي امتدَّت إليها وأثَّرت فيها ، وهي رقعة واسعة تشمل العالم الإسلامي كلَّه .

على أن للعرب فضلاً لا يُنكر ، فهم عصبة الإسلام الأولى ، وحملة رسالته الأولون ، ومبلغو القرآن والسنة إلى العالمين . وفيهم بُعِثَ الرسول الخاتم ، وبلسانهم نزل الكتاب الخالد ، وفي أرضهم حَرَمَ الله وحَرَمَ رسوله . ولكن هذا شيء ، وتحريف التاريخ شيء آخر[١] .

* * *

(١) وانظر : كتابنا (تاريخنا المفترى عليه) نشر دار الشروق ، القاهرة .